Published by the Academic Publication Council of Kuwait University. All rights reserved.

Pilgrims and Persuasion References in Arabs

Anwar Ibrahim Aziz*

Abstract

The objectives of this study revolve around understanding the fundamental aspects of the relationship between the act of argumentation (al-Hujaj) and the act of persuasion (al-Iqna') through various pathways related to the elements of language, rhetoric, and the construction based on reason and imagination. Additionally, the study aims to appreciate Arab thought and acknowledge their efforts in studying rhetoric, eloquence, and the principles of language, all of which serve the Quran and guide individuals in constructing their beliefs and adopting correct behaviors in life.

The problem of the study is related to how to correctly identify or classify all the paths that lead to building persuasion, attempting to deduce and work on it more accurately. There is no explicit, defined existence for such construction, especially since each scholar among the Arab scholars has their own unique approach in construction, argumentation, and reasoning.

This study employs a descriptive-analytical methodology to elucidate the evolving Arab perspective on argumentative discourse, exploring their new understanding of its meaning and influential role. Historical methodology is utilized to trace the ancient Arab view on this discourse. The study highlights the necessity of leveraging linguistic elements and their rhetorical potential to build effective persuasion, emphasizing the transformation of word actions into directive actions capable of changing behavior. This concept extends beyond oratory to include poetry, which is inherently persuasive and foundational in conveying ideas and principles. The research recommends a thoughtful reevaluation of Arab contributions, often overlooked with superficial readings and interpretations.

Keywords: Argumentation, Persuasion, Rhetoric, Discourse, Arab Scholars.

* Academic, Canada. ai_1970@yahoo.com

Submitted: : 21/1/2024, **Revised:** 21/3/2024, **Accepted:** 31/3/2024.

https://doi.org/10.34120/ajh.v42i168.627

To cite this article /الإشارة المرجعية للبحث

عزيز، أنوار: "الحجاج ومرجعيات الإقناع عند العرب"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت: العدد 168، 2024، 131-152.

Aziz, Anwar. "Pilgrims and Persuasion References in Arabs", *Arab Journal for the Humanities*: 168, 2024, 131-152.

تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت. جميع الحقوق محفوظة للمجلة.

الحِجاج ومرجعيات الإقناع عند العرب

أنوار إبراهيم عزيز *

الملخص

تقوم أهداف هذه الدراسة، على معرفة أساسيات العلاقة القائمة بين فعل (الحجاج) وفعل(الإقناع) عبر مسارب عدّة تعلقت بمقومات اللغة والبلاغة و البناء على العقل والتخييل، فضلًا عن تثمين فكر العرب وتقدير جهودهم في دراسة البيان والبلاغة وأصول اللغة بما يخدم القرآن ويرشد الإنسان في بناء قناعاته والعمل بسلوكاته الصحيحة في هذه الحياة.

تتعلّق مشكلة الدراسة في كيفية التعرّف الصحيح على المسالك المؤدية للبناء على الإقناع أو فرزها، مع محاولة استنتاج ذلك والعمل عليه بصورة أكثر دقّة، فلا وجود لمثل هذا البناء وجودًا صريحًا مُعرّفًا به، ولا سيّما أن لكل عالمٍ من علماء العرب مساره الخاص في البناء والاستدلال والتفكير.

اعتمدت هذه الدراسة (المنهج الوصفي التحليلي) عبر إيضاح رؤية العرب التطورية ودراسة مفهومهم الجديد لمعنى الخطاب الحجاجي ولدوره الفعّال المؤثر، مع محاولة التوصّل لقواعد هذا المعنى وأحكامه. فضلًا عن (المنهج التاريخي) في الرجوع إلى الأصول والإشارة إلى رؤية العرب قديمًا لهذا المعنى.

ومن النتائج التي توصّلت إليها الدراسة أنّنا لكي نبني حجاجًا فعّالًا ناجحًا، فلابدّ من العمل على مكامن اللغة واستثمار طاقاتها البلاغية في بناء الإقناع والعمل على التوجيه. فضلًا عن أن مفهوم تحويل فعل الكلمة إلى فعل توجيهي قادرٍ على تغيير السلوك واتخاذ قرارٍ لا يقتصر على الخطابة فقط، بل ويشمل الشعر أيضًا، فالشعر قائمٌ على الإقناع وعلى تأسيس الفكرة والمبدأ وبالتالي فهو خطاب حجاجي أيضًا.

وعليه، فالبحث يوصي بقراءة ثانية واعية لكل طرحٍ عربي، ولكل ما أثرى به العرب من إنجازات لم تزل إلى يومنا هذا مقروءةً بالقراءات السطحية المستهلكة.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الإقناع، البلاغة، الخطابة، علماء العرب.

* أكاديمي، كندا. ai_1970@yahoo.com

الاستلام: 2024/1/21، التعديل النهائي: 2024/3/21، إجازة النشر: 2024/3/31

https://doi.org/10.34120/ajh.v42i168.627

الإشارة المرجعية للبحث/ To cite this article

عزيز، أنوار: "الحِجاج ومرجعيات الإقناع عند العرب"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت: العدد 168، 2024، 131-152.

Aziz, Anwar. "Pilgrims and Persuasion References in Arabs", *Arab Journal for the Humanities*: 168, 2024, 131-152.

مقدمة

يستدعي الخطاب التواصلي بكل مستوياته الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية والتعليمية وعبر العصور قديمًا وحديثًا، حضورًا فعّالًا للحوار ولإبداء الرأي والدعوة لإحداث تغيير ما في سلوكات الآخرين، دون عنفٍ أوتهديدٍ أو خداعٍ؛ ذلك أنّ إحداث مثل هذا التغيير يتطلّب بناءً إقناعيًا ذاتيًا يُعوّل على مجموعة من المعايير الداعمة لمحتوى الخطاب وللكيفية التي يُقدّم بها إلينا. وتتلّخص هذه المعايير بمجموعة من المقومات القائمة على محور اللغة وتسخير طاقات القول الكامنة فيها، أو على محور البناء العقلي في إثبات حجة الإقناع ومراعاة الأقيسة الاستدلالية دون البرهنة العلمية الصارمة لها، أو القائمة على محور العاطفة وبناء المؤثر العاطفي المسؤول على إنتاج الانفعال المناسب في إسناد فعل القول والتحرّك نحو الإنجاز في الميل والإقبال أو الرفض والنفور. فضلًا عن توافر مقومات أخرى تُراعي الجوانب الخارجية والعوامل المحيطة بالمخاطَب. وبحصيلة اجتماع هذه المقومات: (الأسلوب، والعقل، والعاطفة)، وبحسب مستويات القوة المتوافرة فيها، يتحقق الإقناع ويتحقق توجيه الآخرين، وبالتالي تتغيّر مساقاتهم لتتحول إلى فعلٍ إنجازيّ وسلوكيً ناتج عنه؛ الأمر الذي يُجزم حقيقة أنّ الخطاب الاعتيادي، وبأبسط مراتبه في التواصل الإنساني، يقع تحت مُسمّى (الحجاج) ومُسمّى الدفاع عن طرحٍ أو فكرةٍ أو قضية تعليمية أو ظاهرة ثقافية أو مجتمعية أو سياسية أو دينية حدثت بين طرفين أوخصمين يسعى كلٌّ منهما إلى إثبات حقيقة ما يدعو إليه وما يرمي إليه من نتائج تُلزم إحداهما القبول والإذعان إليها في حال إخفاق الآخر بما أتيَ به. فالحجاج ما هو إلا خطوةٌ تمهيديةٌ أولى تضمن نجاح الخطاب وتحقق غاياته القصوى في الإقناع، أيًّا كانت حقوله أو مستوياته التواصلية والتفاعلية بين الناس.

وقفت هذه الدراسة على وجود مفهوم (الحجاج) في الحقول الأدبية كالشعر والخطابة بالنظر إلى الوظيفة الإقناعية المكلّفين بها غاية وهدفًا وإنجازًا، يتحدّد بمقدار ما تنطوي عليه نيات الخطيب أو الشاعر، وبمقدار ما تُملي عليه مرجعياته الفكرية والأيديولوجية. فالشعر والخطابة إفرازٌ أيديولوجي وطرحٌ توجيهي خطير؛ لذلك يستوجب الأمر التعرّف – أولًا – على موقف العرب – قديمًا – وفق الرؤية الضيقة لمفهوم الحجاج مع محاولة الفصل بينه وبين الأدب، لكون الحجاج شعبة من شعب الجدل والبناء على

الاستدلال والقياس، ولا يمكن وبأي حالٍ من الأحوال أن تكون حقول الأدب مما يُشمل بهذا الخوض العقلي وبهذا البناء الاستدلالي، وموقف الفئة الأخرى من علماء العرب – ثانيًا – ممن نظر إلى هذا الشأن بنظرة واعية أكثر اتساعًا وشمولية بـ (مفهوم الحجاج والإقناع) والمحتوى الشعري والخطابي كذلك، لكونهما خطابين توجيهيين يقومان على متكلم ومخاطب ومحتوى، يُبنى على غايات القبول والميل إليه وبالتالي يتحقق الإذعان والتسليم، أو يُبنى على الرفض والنفور وبالتالي الإعراض وعدم الخضوع لشيء منه. ولتحقيق مثل هذه النتائج ؛ كان لابد من العمل بموجب مجموعة من المعايير أو المتطلبات التي رُسمت من بعض علماء العرب كالجاحظ وابن وهب والعسكري والجرجاني والسكاكي والقرطاجني، وافترضت مسارها الإقناعي بما يحقق فاعلية الخطاب، ويدعم محتواه الأدبي والثقافي والاجتماعي والأيديولوجي وغيره.

مفهوم الحجاج والإقناع

يُعدُّ مفهوم (الحجاج) الذي يأتي (لغة) من "الحُجة: بالضم: البرهان وما ثبت به الدعوى، فمن حيث إفادته للبيان يسمى بيّنة، ومن حيث الغلبة على الخصم يسمّى حُجة.."[1] أو "ما دلّ به على صحة الدعوى"[2] من المفاهيم الملازمة لحياة الإنسان ولعمليات التفاعل والتواصل فيما بينه وبين إفراد نسيجه المجتمعي ذات اللغة والقواسم والعادات المشتركة الواحدة، وبأنماطٍ تعبيرية مختلفة تتنوّع بتنوّع الحدث وبتنوّع المستوى الفكري واللغوي والثقافي للمجتمع ذاته، وبموجب الفكرة الشائعة التي تقول: "إننّا نتكلّم عمومًا بقصد التأثير"[3] تنطلق نظرية (الحجاج في اللغة) للعالم اللغوي(أزفالد ديكرو)، وهي تحاول أن تبين "أن اللغة تحمل بصفة جوهرية ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية؛ أي أنّ هذه الوظيفة، مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى والظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية كلّها"[4]، فإن تعرف كيف تحاجج "ليس من باب الترف الزائد بل هو ضرورة. أفلا يعد افتقاد هذه المهارة أحد المنابع المتواترة الكبرى لعدم المساواة الثقافية التي تُضاف إلى عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية التقليدية؟ أفلا يعد إذًا العجز عن التحكّم في الكلام لأجل الإقناع، أحد الأسباب الكبرى للإقصاء؟"[5]

إنّ البناء الصحيح لكل خطاب يُطرح، ولكل مطلب يُرغب فيه، ولكل قضية أو موقفٍ يحتاج الموضوعية والإثبات مجتمعيًا وسياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا وعائليًا أيضًا؛

يعني الدخول بمساق الحجاج، وبمساق البحث عن الوسائل الإقناعية الأكثر قوةً ودعمًا لمحتوى الخطاب وللنتائج المرغوب الوصول إليها، حتى إنّ بعض هذه الوسائل من الممكن أن "يُستعمل بخفاء، بل دون أن يعرف الآخر أنه هدف للإقناع، فالتكوينات العديدة في مجال التواصل ليست سوى تعلّم الطرائق التي تهدف إلى حصر الآخر في فخٍ فكري لايمكن التخلّص منه إلا بتبني الفعل أو الرأي الذي نقترحه عليه..."[6]

بهذا يُعدّ (الإقناع) هدفًا إلزاميًّا ومعيارًا، يعكس مدى تفوّق المحاجج في رسم النتائج أو مدى إخفاقه بعدم تحقق ذلك. ويعني (لغة) "الإقبال بالوجه على الشيء. سُمّيتْ قناعة لأنه يقبل على الشيء الذي يكون له راضيًا"[7]، والقناعة هي "الرضا. ورجلٌ (قُنعان) أي رضًا يُقنع به وبرأيه وبحكمه وقضائه أو بشهادته"[8]. وهذا (الإقناع) الدال على الرضا بالرأي والحكم والقضاء يعني عند (فيليب بروتون) "واحدًا من الحالات الأساسية للتواصل؛ وذلك تبعًا لكون القصد هو التعبير عن إحساس أو حال أو نظرة خاصة إلى العالم أو إلى الذات، أو يكون القصد منه الإخبار؛ أي وصف موقف معين على نحوٍ أكثر موضوعية، أو يكون القصد منه أيضًا الإقناع بواسطة أدلة تحمل المتلقي على الانخراط في رأي ما"[9].

هذا يعني أنّ (الحجاج) يقف على الطرف الأول من مسار العملية التواصلية، فيما يقف (الإقناع) على الطرف الثاني منه، وما بين هذين الطرفين تُقَدَّمُ المقنعات وبناء المسوِّغات وتسخير إمكانيات اللغة وبأساليبها الخفيّة الممتعة، ومما يضمن ميلًا عاطفيًا واستدراجًا عقليًا يُسهم بصنع القرار وتطويع الآخرين للمرغوب فيه، فالحجاج لا يخرج عن أنّه سلوكيّة حواريّة قائمة بين طرفين متضادين تُجرى أمام متلقٍ فردٍ أو جماعة من المُتلقّين، يحاول كلٌّ منهما طرح ما لديه من إجراءات دفاعية ومسالك حجاجية تدعم ما يقول وتنافي ما يدعو إليه الطرف الآخر.

إنّ مفهوم (الحِجاج) بناءً على هذه المنطلقات، يتحرّك داخل دائرتين متقاطعتين، تخصّ الأولى: (دائرة الإقناع) في تمرير الفكرة بالإخبار وبناء الحجة بالإثبات ضمن المدار العقلي بعيدًا عن البرهنة العلمية الصارمة، وما (الصدع بالحجة) عند قدامة بن جعفر إلا قسمٌ من أقسام العقل مع "ثقافة المعرفة والحياء والبيان والسياسة والكفاية..."[10] فيما تخصُّ الثانية(دائرة الإمتاع) النسيج اللغوي وانتقاء جميل المعنى، بموجز اللفظ

وحسن التركيب ضمن المدار الحسيّ والوجداني، فالحجاج لا غنى له عن البلاغة وعن جمال الأسلوب ومغريات المعاني، وأهمية الوسائل البلاغية تكمن فيما "توفّره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فالحجاج لا غنى له عن الجمال، فالجمال يرفد العملية الإقناعية وييسّر على المتكلّم ما يرومه من نفاذٍ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية والفعل فيها"[11] وما سُميّت البلاغة (بلاغة) إلا لأنها "تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[12].

فاستشعار المعنى البلاغي وتثمين قيمته الحسيّة من موجبات تحقيق الفهم والقبول، وبالتالي تحقيق شرط الإقناع والميل أو الإعراض ناتج عنه. من هنا يتضح تقاطع الدائرتين والعمل سويةً على إنجاح الحجاج وبمستوياته كلها، وتنوّع غايات الحاجة إليه، وهذا هو المعنى الموسّع له. إنه الخطاب الذي يسعى إلى "تعديل موقف المتلقي أو تثبيته بالتأثير فيه بالخطاب، أي بالكلام سواء أكان ذلك الكلام يغترف من معين العقل أم من معين العواطف والانفعالات"[13].

الشعر والحجاج

تكاد لا تخلو أشعار الأقدمين، فيما لو قُرِئ الشعر قراءة ثانية تستقصي الجوانب الخفيّة فيه، من إيراد لفكرة ودحضٍ لأخرى، وإثباتٍ لرأي وتفنيدٍ لآخر، والدفاع عن أمرٍ والتعارض مع غيره؛ تسويغا وإقناعًا وتوجيهًا قد يصل إلى الإذعان والتسليم في اتخاذ قرار والعدول عن آخر، بمراعاة مقتضى الحال وتوافر تقنيات الإقناع الموجب لذلك، فالشعر خطابٌ، والخطاب توجيهٌ وإرشادٌ لا يقف على مقتضى الإخبار ونقل الحدث بالواقع الحقيقي له، بل يتعدى ليكون إنجازًا وموقفًا وسلوكًا جديدًا ناتجًا عنه، بموجب ما يرمي إليه الشاعر من مقاصد وما يسعى إلى تحقيقه وإثباته لنا، وما تأكيد الشعراء على إثبات قيمة ما كالكرم والعدل والتضحية وغيره الكثير، إلا صورة من صور الحجاج ودعوة إلى إقناع الآخرين بحقيقة ما يدعون، فالشاعر العربي متى دافع عن قضية ما "وجعلها حقًا خالصًا وإن دعا إلى أمرٍ ألبسه ثوب الحقيقة ونفى أن يكون مجرد فرضية أو محض احتمال، فيكون بذلك قد احتجّ لآرائه وسوَّغ مواقفه وتصرفاته استنادًا إلى قيمة الحق، وهي قيمة فاعلة دون شكّ ومؤثرة في المتلقي"[14].

ومما لاشكّ فيه، أن الشعر العربي قديمًا زاخرٌ بالعديد من النماذج الشعرية القائمة على إبداء الرأي والإيمان بالقضية والتعارض مع الآخر عبر الدفاع عمّا يؤمن به وعمّا يسعى إليه من غايات، ففي شعر الصعاليك مثلًا هناك توجيه شعري خاصٌ بهم، وتمرّد على القوانين، ودفاعٌ عمّا يؤمنون به من فكرٍ يتعارض والمحيط وعمّا يرغبون في تحقيقه من غايات استدعت أن يدور شعرهم في مدار الحجاج وطاقة إقناع الطرف الآخر بصدق دعواهم وطيب نواياهم وعدالة مطالبهم، فذات الصعلوك كما هو معلوم "ذاتٌ رافضة للمجتمع، وقيمة تخلعها القبيلة؛ لأنها تمردت على نظامها، ورفضت الانخراط في منظومة قيمها؛ بل قد تضعف النفوس وتحنُّ إلى القبيلة، بعد أن أمستْ مهمشّة مرفوضة، فتحتاج إلى قوة الحجة تدفع بها الحنين كما تدفع لوم الآخرين"[15] فـ(لامية الشنفرى) – على سبيل المثال– من قصائد الصعاليك المليئة بصور الرفض والتضاد الفكري والمجتمعي والنفسي بين الشاعر وبني قومه، وما نكران الشاعر لهم " واستبدال المجتمع الحيواني بهم ليس إلا معادلًا فنيًّا لملء الفراغ النفسي الذي كان يشعر به، وإتمام النقص الذي كان يعانيه"[16]، نتيجة لقسوة هذا المجتمع وعدم احتوائه له، فجاءت (لاميته) ثورة عليهم ورفضًا لهم ولسياساتهم في التعامل معه، وبطريقة حجاجية قائمة على إعلاء الذات والتأكيد على ما تتحلّى به من محاسن وقيمٍ وعفّة لا تتوجب من مجتمعه هذه القطيعة أو النبذ. والأمر يتكرر أيضًا مع البقية من الشعراء الصعاليك، وما كانت تضجّ به قصائدهم من طرحٍ وأفكارٍ وأساليب حجاجية، تعكس قضاياهم، وتسوِّغ معاناتهم، وتعيب منهجية أقوامهم وسياساتهم القاصرة معهم.

إنّ إثبات(الحجاج) في رحلة الشعر وبدءًا من العصر الجاهلي لم يكن ذا مقبولية وتأييد عاليين عند الأقدمين في جلِّ تعريفاتهم ومعاييرهم في قول الشعر آنذاك؛ ذلك أن (الحجاج) وفقًا لمفهومهم يماهي (الجدل)، والجدل يقوم على الحجة والبرهان، وهو "اللجاج في الخصومة، وهو القياس المؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلّمة لتصديقٍ لا يعتبر فيه الحقيّة وعدمها، بل عموم الاعتراف أو التسليم"[17]، وهو مما يُستعمل في "المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات، والتنصل والاعتذارات"[18]، واستبعاد الشعر وفقًا لهذا المنظور عن دائرة الجدل وعن البناء القائم على الأقيسة والمقدمات لا محالة يعني استبعاده عن الحجاج وعن حاجة الشاعر إلى الحجة والإثبات فيما يُنشد أو

يقول، فالشاعر ما سُمّي شاعرًا إلا لأنّه "يشعر بما لا يشعر به غيره"[19]، والشعر ما يكون عَذبًا إلا إذا كان قائمًا على الكذب وعدم قول الحقيقة، لا على المنطق والصدق والإثبات، وإنّه لا "يُحبّبُ إلى النفوس بالنظر والمَحاجّة ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة"[20]. بهذه الأطر تقيّد الشعر، وبات محصورًا بزوايا الحسّ وإثارة العاطفة وتحقيق الوظيفة الإمتاعية له، فلا حاجة عقب ذلك إلى الحجة وإعمال الفكر ما دام أن النفس قد استلذت والغاية قد تحققت.

ولنا أن نقف عند هذه النقطة ونبين أنّ حقيقة المُتخيّل الشعري القائم على الكذب لديهم، لا يعني بالضرورة انتفاء حاجة المتلقي إلى العقل في الإثبات والعمل على ربط الصورة الشعرية في النموذج المُعطى وبين الغاية أو الفكرة المقصودة منه، ولنا أن نتساءل أيضًا كيف نستطيع إدراك الجمال والإحساس به دون إدراك العقل لمجموعة من المقايسات الداعمة له؟ بمعنى كيف يتسنّى للحسّ أن يستشعر هذا الجمال دون معونة العقل له؟ وهل جاز لنا الفصل بين الانفعال النفسي والاقتناع العقلي في تحقيق المتعة وإبداء القبول والعكس من ذلك. وتعقيبًا على ذلك، ينقل لنا (الجرجاني) اعتراض (البحتري) واحتجاجه على من كلّفه التزام حدود المنطق في الشعر بقوله:[21]

كَلَّفْتُمونـــا حُـــدودَ مَنْطِقِكُـــمْ فالشِّعْـرُ يُغْنـي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُـه

أراد: كلفتمونا أن نُجري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهانٌ يُقطع به ويُلجئ إلى موجبه؛ إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظًّا من الفضل والسؤود ليس له؛ لأنّ هذا الكذب لا يُبيّن بالحجج المنطقية والقوانين العقلية، وإنمّا يُكذَّب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به والكشف عن قدره وخسّته"[22]، فالشاعر (البحتري) يفصِلُ الشعر عن المنطق وعن الدخول به في منطقة الفلسفة ومخاطبة العقل كما كان عند شعراء عصره، ونخصّ بالذكر منهم الشاعر(أبا تمّام) الذي أدخل الفلسفة في العلم الفني واعتمدها على أنها "شيء أساس، فالشعر لا يخاطب الشعور فقط، بل هو يخاطب العقل قبل كل شيء؛ فهو لا يعتمد على العبث اللفظي ولا على هذه المعاني التي تتوالى في الذهن حين نذكر الليل فيأتي النهار أو الضوء.. هو يعقد الطباق ويجعله عملًا عقليًاواسعًا

ففيه خيال وفيه تناقض وتضاد "[23] بمعنى أنّ تذوّق الشعر واستشعار متعة النفس معه لا تتبدى إلا بالتقاط العقل مواطن الربط بين ما يرغب به الشاعر وبين ما استعان به في تقريب هذه الرغبة.

علينا قبل الدخول في التفاصيل، أنْ نبين حقيقة أنّ إثبات الحجة وإقامة الدليل والاستعانة بكل ما يفي بالغرض في إقناع الطرف الآخر، كان مقتصرًا على إثبات العقيدة الإسلامية وصحة الأصول في الدين والمذهب عبر الأدلة العقلية وقواعد الاستدلال المنطقية، وكائنًا تحت مُسمّى (المذهب الكلامي) الذي نُسبت تسميته إلى (الجاحظ)، وهو في الاصطلاح يعني: "أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة يصحُّ نسبتها إلى علم الكلام؛ إذ علم الكلام هو إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة"[24]، وهو مما أفرد له ابن أبي الأصبع بابًا خاصًا سُمي به وعرّفه على أنه "احتجاج المُتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المُعاند له فيه؛ لأنه مأخوذ من علم الكلام، الذي يثبت أصول الدين بالبراهين العقلية، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل (وحاجّه في قومه)، إلى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾"[25]، وفيه يشتمل المعنى "على حجة بالغة يتجنّب العقلاء ردّها لشدّة تمكنّها من الأنفس، ولا يقع إلا في الاعتذار غالبًا. وفي الإتيان به دليل على بُعد مرمى الشاعر وفرط مقدرته"[26]، وعلى الرغم من إيراد (المذهب الكلامي) عند ابن المعتز في الباب الخامس من البديع بقوله: "وهو مذهب سمّاه أبو عمرو الجاحظ"[27] إلا إنّه بالنسبة إليه بابٌ "ما أعلم أنّي وجدت في القرآن منه شيئًا، وهو يُنسبُ إلى التكّلف، تعالى الله عن ذلك علّوًا كبيرًا"[28]، وقد أفرد العسكري هذا المذهب في الباب الثامن والعشرين من (الصناعتين) مستعرضًا كذلك رأي (ابن المعتز) فيما "يخصّ هذا المذهب"[29]. على هذا، استصعب بعض العرب إدراج الشعر مدرج الحجاج، والعمل وفق قواعد العقل والمنطق كما في مذهب (علم الكلام).

على الرغم من ذلك، لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فبعد شيوع حلقات الجدل وعقد المناظرات وإقامة الحجة على من خالفَ وادّعى، وبعد النمو الكبير بحركة الترجمة وكثرة الاطّلاع على العلوم والثقافات الأخرى، ونتيجة لحاجة الشاعر إلى الخروج من ضيق الدائرة الأولى إلى دائرة أوسع في تقديم نموذجٍ شعري جديدٍ، يستوعب ويوجّه ويحلّل

ويبدي الرأي وفقًا للمتغيرات المجتمعية والسلطوية والسياسية والثقافية الطارئة على الساحة آنذاك؛ انتقلت آليات إثبات الموقف ودحض الفكرة وتبرئة المُتهّم والدفاع عن الحقيقة وتمرير فكرٍ أو عقيدةٍ أو مبدأ ما إلى (الشعر)، ولم تعدْ النظرة إليه قاصرةً على الجانب الإمتاعي في ترفيه النفوس ومخاطبة القلوب بكل ما يوجب المتعة والشعور بلذّة القوافي، وانسجام المعاني فحسب، بل امتدت إلى دائرة التوجيه والإقناع وإثبات ما يميل إليه الشاعر من أمورٍ وقضايا تستوجب منه بثًّا حجاجيًا مقنعًا لكل ما ينوي الشاعر إيصاله لنا، بمعنى أنّ لكل نصٍّ شعريّ أو أدبي فضلًا عن "جانب الوظيفة الشعرية وظائف أخرى مثل الوظيفة الانفعالية، والوظيفة التوجيهيّة الإقناعية، والواقع أن القدامى قد حدّدوا للنص على الأقل وظيفتين هما الإلذاذ والنفع بالمعنى الاجتماعي"[30]؛ بمعنى أن اللذة مرهونة بمدى تفوّق الشاعر في أناقة الاختيار والربط الجميل بين اللفظ والمعنى، فيما يرتهن مفهوم النفعية بمقدار ما يقدّمه الشاعر من قيمٍ وأفكار وتوجيهات لابدَّ لها من حججٍ ومسوغات تستدعي استخدامًا خاصًا في كل ما يضمن الوصول إلى دائرة الإقناع والتوجّه نحو الفعل بالتصديق والإذعان أو بالرفض والإعراض، على أساس أن من مهام وظائف الشعر العمل على الإقناع والتوجيه. وهذا مما أشار إليه وأكدَّ عليه ابن رشيق القيرواني حينما وضع جملة من الشروط اللازمة في صناعة الشعر إذ يقول: "وأول ما يحتاج إليه الشعر بعد الجدّ الذي هو الغاية، وغايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان ليدخل إليه من بابه ويداخله في ثيابه؛ فذلك سرّ صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا"[31]، والغاية التي تمكّن الشاعر حين صناعة الشعر والإجادة فيه، حسب القيرواني، ما يتحقق الإقناع بها؛ إلا بمعرفة مسارب المخاطب والتسلّل إلى عقله وقلبه معًا، عبر العثور على مفاتيحه الدالة عليه والموجبة إلى إقناعه وإذعانه لما ننوي إيصاله من قيمٍ مجتمعية أو أغراضٍ شعرية تخصّ المدح أو الذمَ أو الرثاء أو الهجاء وغيره.

الحجاج وجذور الإقناع عند العرب

بتتبع بسيطٍ لمسيرة اللفظ والمعنى عند العرب والاطّلاع على تعريفاتهم بجلاء، يتّضح أنّ هناك ربطًا جليًا جامعًا بين الشعر، والخطابة، والبلاغة، وبين الحجاج الذي يسعى دومًا نحو غاية الإقناع وتوجيه السلوك نحو المقصود بأوجز السُبل وبأدق المعايير في البناء والاستنتاج والاستدلال والمشابهة والوصل والفصل والقياس وغيره الكثير؛ بمعنى أنّ

مسار الشعر ومرجعياته الأولى لم تنفك أساسًا عن الحجاج وعن تقنياته في رسم الغاية وتبيّن الغرض الشعري من قبل الشاعر، فلكلّ صورة شعرية ولكلّ مجازٍ بلاغي، لابدّ من مقومات تخيلية إقناعية، تعمل وبمعونة المخيلة، على الربط بين المعطيات الشعرية وبين الفكرة المقصودة، بمعنى أنّ هناك أجزاءً من البلاغة كما يقول (جوئيل غارد تامين): " تتوجه أساسًا إلى الإحساسات؛ أي إلى القلب وإلى الحواس، وتتوجه أجزاءٌ أخرى إلى الذكاء. هذا هو المعنى الموسّع للحجاج الذي يشمل الشعر أيضًا."[32]

إنّ أولَ الموجّهين في تتبع مسيرة اللفظ والمعنى فيما يخصّ الحجاج، كانت مع (الجاحظ: 159هـ – 255هـ) رجل المناظرة والحجاج، والمتكلم المعتزلي في الرأي والتوجّه، وأول من تفطّن بضرورة التمكّن اللغوي و الاستعداد البلاغي في الوصول إلى مرحلة الاقتناع فيما كان يخصّ المجادلين والمناظرين في الدفاع وإثبات صحة ما يسعون إليه من فكرٍ وتوجّه وانتماءٍ أمام الطرف الآخر، فشرط الوصول إلى البيان عنده لا يتمُّ إلا بمراعاة اللغة (البنية الداخلية)، والمقام (البنية الخارجية)، والمتلقي (البنية النفسية) تحقيقًا لغايات الإقناع، وإنّ مدار (الأمر والغاية) التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هي "الفهم والإفهام"[33] بموجب التواصل والتخاطب بين الطرفين، وبموجب ما يحتاجون إليه من"تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة، وإنّ ذلك من أكثر ما تستمال إليه القلوب، وتثنى به الإعناق في محاجّة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان"[34]، فإنّك على لسان عمرو بن عبيد في تعريفه للبلاغة "إنْ أوتيتَ تقرير حُجة الله في عقول المكلّفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الإذهان، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة؛ كنتَ قد أوتيتَ فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب..."[35]

وقد أورد الجاحظ فضلًا عن ذلك شرطًا آخر في تحقق غايات الإقناع وإقامة الحجة القطعية فيه، عبر مراعاة مخارج الحروف والتعامل اللفظي الصحيح معها؛ إذ يؤكد على "سهولة مخارج الحروف، وجهارة المنطق"[36] في الوصول إلى مراتب البيان العليا المتعلقة به، وقد ذكر الجاحظ (واصل بن عطاءً)؛ إذ كان "داعية ومقالة، ورئيس نِحْلةٍ، وأنّه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنّه لا بدّ من مقارعة الأبطال..."[37] مثالًا لمن لا يمتلك البيان التام واللسان القادر على إفحام الخصم، وإيراد الحجة رغم مكانته

العلمية والدينية آنذاك، فقدكان "ألثغٌ فاحش اللثغ"[38] ومن شأن هذه العلة إنْ وجدت في المحاجج أو المناظر- إضعاف الحجة، وعدم التمكّن التامِّ أمام الخصم، فأعظم مضرة حسب الجاحظ في مثل هذه المنازعات "العيّ من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة "[39]، فلا عجب عقب هذه الإرشادات والمعايير الدقيقة في (المقارعة)، و(المنازعة)، و(المَحاجة)، و(المفاوضة) و(المناقلة) أنْ يكون الجاحظ ممن أرسى مبادئ الحجاج، وربط قنوات الإقناع بفن إدارة الكلام وإحكام سلطة القول فيه.

ومن جملة ما أشار إليه الجاحظ فيما يقع بمضمون الإقناع وإيراد الحجة، حين جعل (الكميت، والطّرماح) بمرتبة (الخطباء الشعراء) في الحجاج القائم بينهما، وما كان يجري فيه من جدالٍ عميق وتقديمٍ للحجة ودحضٍ للأخرى من كلا الطرفين؛ إذ يقول "ولم ترَ الناس أعجب حالًا من الكُميت والطّرماح، وكان الكُميت عدنانيًا عصبيًا، وكان الطّرماح قحطانيًا عصبيًا، وكان الكميت شيعيًا من الغالية، وكان الطّرماح خارجًا من الصفرية، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة، وكان الطّرماح يتعصب لأهل الشام..."[40]. والأمر ذاته ما حصل بين "عبدالله بن يزيد الأباضي، وهشام بن الحكم الرافضي، وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة"[41] وغيرهم ممن وثقّوا صلة الشعر بالحجاج، واستعانوا بكل ما يثبت حججهم ويذل خصومهم، ويرجّح كفّة القول لديهم أمام المعارضين لكل دعاواهم ورؤياهم الفكرية والدينية والعقدية وغيرها، فأشعارهم لم تكتفِ بالإخبار والتواصل ومخاطبة الحسّ والوجدان، وتحقيق أثر المتعة بأناقة اللفظ وانتقاء المعنى، بل تحولت إلى إنجازٍ وفعلٍ وسلوكٍ لمن كانت حجته أوقع ولغته أنفع.

ولم يبتعد (إسحق بن وهب/ ت: 335هـ) كثيرًا عن منطقة ربط (البيان) بتقنيات الإقناع والتأثير على الآخر عبر ظاهر مدركٍ بالحس والعقل وباطنٍ يحتاج (الاستدلال)، واعتماد الأقيسة بكل أشكالها الموثوقة؛ إذ يقول يأتي البيان على أربعة أوجه "البيان الأول، وهو الاعتبار، وهو قائمٌ على الظاهر الذي يُدرك بالحسّ أو ما يُدرك بنظرة العقل، فيما أن الباطن لديه" ما غاب من الحسّ واختلفت العقول في إثباته، وهو المحتاج إلى أن يُستدل عليه بضروب من الاستدلال ويُعدّ بوجوه المقاييس والأشكال، وطريق ذلك: القياس والخبر "[42] بمعنى أنه اعتمد في هذا البيان على قياس القرآن والأمثلة والأحاديث النبوية فالحق لديه "يُعرف بالمقايسة عند ذوي الألباب"[43]، وفيما يتعلّق بالخبر فيعني بما ينفعنا من مساءلة

أهل الذكر ومما تفيدنا أخبارهم "علمًا، وتزيل عنّا شكًا، كقول رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم: ليبلغ الشاهد منكم الغائب؛ بمعنى إبلاغ الشاهد الغائب يوجب الحجة"[44]

وفيما يتعلّق بـــ (البيان الثاني في الاعتقاد) فمنه "حقٌّ لا شبهة فيه، ومنه علم مشتبه يحتاج إلى تقويته بالاحتجاج فيه، ومنه باطلٌ لا شكّ فيه" [45]، ويعتمد هذا البيان على المقدمات القطعية أو المقدمات الظاهرة أو المقدمات الخلقية، بينما (البيان الثالث في العبارة) فهو يختلف باختلاف اللغات وإن "كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة في ذواتها وإن منه ظاهرًا وإن منه باطنًا. المحتاج إلى التفسير وهو الذي يتوصل إليه بالقياس والنظر"[46] وفي هذا البيان مما يتعلّق بأسرار اللغة العربية وما فيها من وجوه وأقسامٍ ومعانٍ تحتاج إلى تفهّم معانيها واستباط دلائل ألفاظها ضمن الأساليب الخبرية والإنشائية فضلًا عن استعمالات أخرى من "الاشتقاق والتشبيه واللحن والرمز والوحي والاستعارة والأمثال واللغز"[47]، فقد جعل اللغز مثلًا قولًا "استعمل فيه اللفظ المُتشابه طلبًا للمعاياة والمحاجّة والفائدة في ذلك في العلوم الدنيوية، رياضة الفكر في تصحيح المعاني وإخراجها من المناقضة والفساد إلى معنى الصواب والحق وقدح الفطنة في ذلك "[48]، والمثل لديه "مقرونٌ بالحجة"[49]، وبتقريب المعنى إلى الأذهان. وهكذا تعامل ابن وهب مع البقية الأخرى من وجوه البيان في العبارة، وجعل منها أدوات فعّالة في تحقيق شرط الإقناع إن أستعين بها على الوجه الصحيح من تقريب للمعنى ورسمٍ للمقصود.

فيما يأتي (البيان الرابع وهو الكتاب) فيما ألهمه الله على عباده من الكتابة وأنّه أراد "إتمام منافعهم وإيجاب الحجة عليهم، فإنّه لولا الكتاب الذي قيّد علينا أخبار من مضى من الرسل، ونقل إلينا ما أتَوا به من الكتب؛ لما قامت لله سبحانه حجة علينا؛ إذ كنّا لم نشاهدهم ولم نسمع حججهم، ولانقرضت العلوم والروايات بانقراض أهلها"[50]، فالكتابة نعمة حفظت ونقلت ودوّنت الكثير من علوم الماضين وأيامهم، ونقلت أخبارهم إلى المتقدمين من بعدهم، واستعمال القلم "أجدر أن يحضر الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام"[51]. بهذه الأقسام الأربعة من البيان يكون ابن وهبقد رسم لنا مخططات البيان، وسبل الوصول إلى الإقناع عبر معايير العقل وبناء الحجة، لا بمجرد الاكتفاء باللغة والاعتناء بالتراكيب.

اتخذ (أبو هلال العسكري: 310هـ – 395هـ) في كتابه: (الصناعتين) مسرب البلاغة الإقناعية وتحقيق الفهم والإفهام حتى الوصول إلى أقصى غاياتها في الإذعان والتسليم، من خلال جملة من المعايير والقواعد اللازم اتباعها وتقيّد البليغ به لكي يكون جديرًا مُلِمًّا بمعرفة "إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة وقبيحٌ لعمري بالفقيه المؤتّم؛ والقارئ المهتدي بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته، وشدة شكيمته في حجاجه ألَا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى."[52]، وتتجلّى سمة هذا الإقناع، والتماس الحجة في الوصول إليه من خلال المنظور الدقيق الذي أسس إليهالعسكري بتعريفه للبلاغة الناجعة عنده؛ إذ يقول: "بَلَغتُ الغاية إذا انتهيتُ إليها وبلّغتها غيري، ومبلغُ الشيء: منتهاه. فَسُمّيتْ البلاغة بلاغة؛ لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[53]، فبلوغ الغاية والانتهاء منها بالتبليغ عنها عبر القلب أولًا، والعقل بالفهم ثانيًا ما يؤكد هذا.

مما يُدرج البلاغة بمصفّ الحجاج، ومصفّ الاستعانة العقلية في الإثبات؛ إذ يقول على لسان محمد بن الحنفية رضي الله عنه: "البلاغة قولٌ تضطرّ العقول إلى فهمه بأسهل العبارة"[54]، وعلى لسان عبيد الله بن عتبة قوله: "البلاغة دُنُوّ المأخذ، وقرع الحجة، وقليل من كثير"[55]، وقد استعان العسكري بوضوح "الدلالة وقرع الحجة، بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾، فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنيةٌ بنفسها عن الزيادة فيه؛ لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء"[56]

أضف إلى ذلك فقد أشار العسكري إلى أنّ الاستشهاد والاحتجاج مما لا يُستغنى عنهما في البلاغة تحقيقًا للفهم وبلوغا لغاية الإقناع، فالكلام حين يُصنع معناه الأول ولكي يكون أكثر توكيدًا وتحقيقًا في نفس السامع، فلابدّ له من معنًى ثان يشتمل عليه، ويتنزّل فيه منزلة الحجة في الإثبات والصحة؛ الأمر الذي يضمن إيضاحًا وإفهامًا أكثر للمعنى الأول، فهو جنسٌ كثيرٌ "في كلام الأقدمين والمحدثين، وهو أحسن ما يُتعاطى من أجناس صَنعة المعنى، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته"[57].

ومن زوايا الإقناع الأخرى عند أبي هلال العسكري ما تعلّق بفوارق اللغة، وفوراق معانيها عبر مساق الخطاب، وفاعلية الألفاظ، والانتقاء المنظّم غير العشوائي للروابط المناسبة بين الجمل والعبارات، مع مراعاة اختلاف المعنى باختلاف الحركات، وغيرها من المعايير الواجب الأخذ بها دعمًا للخطاب ولقوة الحجة فيه، فاختلاف "العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني"[58] والفروق ولكل اسمين "يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإنّ كل واحدٍ منهما يقتضي خلافَ ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلًا لا يحتاج إليه "[59]، ولا يجوز أن "يدلّ اللفظ الواحد على معنيين مختلفين حتى تُضاف علامة لكل واحدٍ منهما، فإن لم يكن فيه لذلك علامة، أشكلَ وألبسَ على المخاطب، وليس من الحكمة وضع الأدلة المُشكّلة"[60] وقد استوفى ذلك وغيره بالعديد من الأمثلة التي وضعت لإعانة المحاجج على إدارة الخطاب وفرض سلطة القول فيه مع ضمان حضوره الإقناعي وفاعليته القصوى على السامع، فعلى سبيل المثال يفرّق العسكري بين السؤال والاستفهام بقوله: "إنّ الاستفهام لا يكون إلا ما يجهله المُستفهم، أو يشكّ فيه. ويجوز أن يكون السائل يسأل عمّا يعلمُ وعمّا لا يعلم، فالفرق بينهما ظاهر"[61] وبين النسيان والسهو بقوله: "النسيان إنما يكون عمّا كان، والسهو يكون عمّا لم يكن"[62]، ولا يجوز عنده تعاقب حروف الجرّ؛ لأنها إذا تعاقبت "خرجت عن حقائقها ووقع كلّ واحدٍ منهما بمعنى الآخر"[63]؛ لذلك لا يمكن وبأي شكلٍ من الأشكال إهمال هذا الجانب اللغوي في تخيّر الألفاظ وانتقائها بصورة واعية توضّح المعنى السياقي في الخطاب وبالتالي تُسهم في رسم استراتيجيات الإقناع والتوجّه نحو إثبات أو إبطال شيء ما.

أمّا فيما يخص جانب الإقناع العقلي عند (عبد القاهر الجرجاني: 400 هـ-471هـ) فقد تعلّق عنده بعملية الأخذ بالقياس، واعتمد حجته بنيّة إثبات المعنى وتوثيق دلالته في النفس رغبة في الإقناع، فقد جعل لمعانيه قسمين، سمّى الأول القسم العقلي، الذي يكون "مجراه في الشعر والكتابة، والبيان والخطابة مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء، والفوائد التي يثيرها الحكماء؛ ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس مُنتزعًا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة رضي الله عنهم، ومنقولًا من آثار السلف."[64]، فهي مما يشهد العقل على صحته "ويتفق العقلاء على الأخذ به والحكم بموجبه"[65]

فيما يقع النوع الآخر من المعاني في القسم التخييلي الذي لا يمكن "أن يُقال عنه صدقٌ، وإنّ ما أثبته ثابت وما نفاه منفي، فهو مُفتنٌّ المذاهب، كثير المسالك، ثم إنّه يجيء طبقات ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعًا قد تُلطّف فيه، واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطي شَبَهًا من الحق وغُشي رونقًا من الصدق باحتجاج تُمُحِّل وقياسٍ تُصنّع فيه وتُعُمِّلَ "[66]؛ بمعنى أن التخييل لكي يكون ناجعًا مؤثرًا على السامعين، فلا بد من الاحتجاج به وفقًا لقياس شعري مصنوعٍ له، وإن خرج هذا القياس عن مقتضى المعقول، وهذا مما يأتي بحاجته حسب الجرجاني في الشعر والخطابة بأن يجعلوا اجتماع "الشيئين في وصف عِلّة لحكم يريدونه، وإن لم يكن كذلك في المعقول ومقتضيات العقول"[67]، فالشاعر فيما لو استعان بالتخييل وسيلة للإبداع، فلا أن يؤخذ عليه بأن "يصحح ما جعله أصلًا وعلة كما ادّعاه فيما يُبرم أو ينقض من قضية، وأن يأتي على ما صيّره قاعدة وأساسًا ببيّنة عقلية، بل تُسلّم مقدمته التي اعتمدها ببيّنةٍ"[68]؛ لأنه قد أجاد بوضع قياس شعري مناسبٍ لها، عمِل عَمل البيّنة والدليل.

وقد ضرب مثلًا لهذا في اعتماد أبي تمام على التخييل، وتقديم حجة القياس بربط صورة الكريم الخالي من الغنى بصورة المكان العالي الخالي من السيل، وهذا فيما يتعلق بأبي تمام ليس بموضع غرابة؛ لأن قمم الجبال من الطبيعي ألّا يستقر بها ماء السيل بسبب علوّها، وكذلك الرجل الكريم الذي لا يستقرُّ المال لديه ولا يصبح يومًا غنيًا بسبب علّو شأنه وعظيم قدره، إذ يقول:

لا تنكري عَطَـلَ الكريمِ من الغِنـى ... فالسّيـل حـربٌ للمكـانِ العالـي

الأمر الذي أوجبَ على أبي تمام "بالقياس أن يزلَّ عن الكريم، زليل السيل عن الطود العظيم ومعلومٌ أنّه قياسُ تخييلٍ وإيهامٍ لا تحصيلٍ وإحكامٍ، فالعلة أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية، وإن الماءَ سيّالٌ لا يثبت إلا إذا حصل في موضعٍ له جوانبُ تدفعه عن الانصباب وتمنعه من الانسياب، وليس الكريم والمال، شيء من هذه الخلال"[69]، فلا يمكن أن ننكر فيما لو قُرِئ الشعر قراءة شعرية واعية تعتمد مقوم الحجة في القياس والاستدلال وغيره، أن لا يكون له دورٌ في البناء على الحجاج وغاياته في الإقناع والتوجيه، ولا سيّما إذا ما كان الشاعر ممن يطرح قضاياه المجتمعية والسياسية

والثقافية والقبلية والدينية وغيره، ويحاول أن يستميل الآخرين بمحتوى ما يدعو إليه أو يؤمن به.

وبالانتقال إلى (أبي يعقوب السكاكي: 555هـ – 626هـ)، والنظر إلى تصّوره الجديد في البلاغة والأدب، فقد أشار إلى أن البلاغة الحقيقية ذات المقاصد الإقناعية الموجبة للإذعان لاتعني مجرد الاكتفاء بزخارف القول ومحسنات الكلام، كما هو معتادٌ عليه في الاستعارة والتشبيه والكناية وغيره، بل إنّ الأمر يوجب بعضًا من الاستعانات الحجاجية في خطاب العقل والقلب معًا؛ بمعنى أن كل ما يتجّه إلى القلب والوجدان من متعةٍ جمالية وحسيّة مؤثرة، لابدّ له من المرور إلى العقل أيضًا من باب الضرورة الواجبة للإقناع العقلي، عبر تقنيات الاستدلال وفرز المعنى المضمر المقصود من معطيات المعنى الظاهري المتعارف عليه، ومن أهم الأمور التي عمل عليها السكاكي في كتابه (المفتاح) حتى يصل إلى هذه النقطة؛ أنه قد جمع بين علم (المعاني) وعلم (البيان) من ناحية أن البيان عنده "شعبة من علم المعاني لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار"[70]، وبين علم (المعاني) و(الاستدلال)؛ حيث إنّ تتبع "تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان"[71]، وهذا مما جاءت به أيضًا مقدمة الكتاب في إشارة جديدة ودراسة بعينٍ أخرى لمكونات الأدب وأنواعه؛ إذ يقول: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة. وهي عدّة أنواعٍ متآخذة. فأودعته علم الصرف بتمامه، وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه بعلمي المعاني والبيان، وقد قضيت –بتوفيقِ الله– منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحدّ والاستدلال، لم أرَ بدًّا من التسمح بهما"[72]؛ رغبةً منه في الوصول إلى البلاغية الإقناعية من خلال الربط بينهما، ومن خلال تحقّق لسكاكي المستفيض الوافي في كتابه (المفتاح)، فقد بيّن أنّ هدف علم (المعاني والبيان) ما هو إلا "معرفةً بخواص تركيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني؛ ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقّها، بحسب ما يفي به قوّة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزءٌ واحدٌ من جملتها وشعبة فردة من دوحتها"[73]؛ معطيًا لعلم المعاني، والتراكيب، أولوية المعرفة الحقيقة لمقامات الكلام ومناسبة القول فيها أكثر مما أعطى لعلم البديع من أهمية واهتمام.

لقد رسم السكاكي صورته لعلم البيان، من خلال رؤيته للمعنى وللدلالة الموضوعة له وبكيفية حجاجية استدلالية، فالبيان عنده "معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد إليه"[74] بمعنى أن البيان لديه مرتهنٌ بما وضع للفظ من دلالة، فإن كانت هذه الألفاظ مما وضع لمفهوم دون زيادة ولا نقصان فهي دلالة المطابقة ودلالة الوضعية، بمعنى أن اللفظة متى "كانت موضوعة لمفهومٍ أمكن أن تدلّ عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع"[75]، وإن تعلّقت هذه الألفاظ بمفهوم آخر "تعلّق بآخر ولثانٍ ولثلاث"[76]، وبدلالات أخرى خارجة عن الأولى؛ أمكنَ أن "تدلّ عليه بوساطة ذلك التعلّق بحكم العقل، وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية، وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما؛ ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني"[77]، ويفسر السكاكي هذا اللزوم بين المعاني بـــ "حكم العقل وحكم الاعتقاد، و عدّ جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم كما تقول: رعينا غيثًا، والمراد لازمه وهو النبت. ونحو قولك: أمطرت السماء نباتًا أي: غيثًا، من المجازات المنتقل فيها من اللازم إلى الملزوم"[78]

أنتقل إلى زاوية أخرى من زوايا الإقناع العقلي التي اعتمدها العرب في كيفية التعامل مع البلاغة والشعر، ويعدّ (حازم القرطاجني: 608هـ – 684هـ) ممن تناول هذا الشأن بنظرة واعية عميقة، قامت على المحاكاة الشعرية في (فعل التخيّل) الناتج عن الشاعر، وأثر (التخييل) الصادر عن السامع أو المخاطَب حينها، فلا يعدّ الشعر لديه من "حيث هو صدق، ولا من حيث هو كذبٌ، بل من حيث هو كلام مخيّل"[79] يفارق "البرهان والجدل والخطابة بما فيه من التخييل والمحاكاة..."[80] التي تجعل النفوس "أشدّ انفعالًا؛ حيث نقصد بسطها نحو شيءٍ أو قبضها عنه"[81]؛ بمعنى أنّ عملية (التخييل) الواردة عن السامع، لها دورٌ انفعالي على النفس، وبالتالي لها دورٌ إقناعي على العقل، فهو لا يفصل بين إثارة النفس في الإقبال أو النفور، وبين إثارة العقل في الإقناع أو الرفض؛ لأنّ المقصود الفعلي للشعر لديه يعني "إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده، أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده، بما يخيل فيه من حسنٍ أو قبحٍ أو جلالة أو خسّة"[82]

بذلك لا يستبعد القرطاجني الربط بين الأقاويل الشعرية والأقاويل الخطبية وتبادل

التخييل والإقناع فيما بينهما؛ إذ يقول: "إنَّ التخييل قوام المعاني الشعرية، والإقناع قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ كما أن التخييل سائغ استعماله في الأقاويل الخطابية؛ لأن الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة وإلقاء الكلام في النفوس بمحل القبول"[83]؛ بمعنى أنّ التركيز على (سيكولوجية) السامع عقب عملية التخييل بوجود فعل التخيّل، ما هو إلا غاية مرسومة نحو إحداث سلوكٍ معيّن وتوجيه مقصود منه، ولا تتم عملية التخييل هذه، إلا باستدعاء خبرات السامع المخزونة ومطابقتها مع معطيات الصور المخيّلة من قبل الشاعر، فيحدث فعل الإثارة بين الطرفين ويستجيب السامع لغاية مقصودة سلفًا"[84]. وذلك أمرٌ طبيعي واردٌ، يحدث للإنسان لكون التخييل "ينتج انفعالات تفضي إلى إذعان النفس التي تنبسط عن أمرٍ من الأمور أو تنقبض عنه من غير روية وفكرٍ واختيارٍ، أي على مستوى اللاوعي؛ وذلك في ضوء المقولة النفسية الأرسطية التي تؤكد أن الإنسان يتبع تخيلاته أكثر مما يتبع عقله أو علمه، وإنّ سلوكه يتحدّد –في الغالب– بحسب تخيّله أكثر مما يتبع عقله وعلمه "[85]... وبالتالي يؤدي الكلام المتخيّل في الشعر إلى استفزاز المتلقين إلى أمر من الأمور أو "توقع في نفوسهم محبة له، أو ميلًا إليه، أو طمعًا فيه، أو غضبًا وسخطًا على خصمه" [86]؛ لذلك يؤدي فعل التخييل في الأقاويل الشعرية دورًا فعالًا يُسهم في تحقيق الإقناع والميل نحو ما تسرّب إلى العقل من صور متخيّلة هيّأتْ الفكرة وقرّبت المضمون، وبالتالي حققت سلوكًا ما.

وهذه بعضُ زوايا الإقناع المعتمدة من قبل هذه الثُلّة من العلماء، وهي مما أوجبَ إعادة النظر في مضمون الخطاب برؤية حجاجية تستدعي تأملًا استفهاميًا، ورغبة مُلحّة لمعرفة أقصى الغايات الفعلية الكامنة وراء هذا المضمون الأدبي شعرًا وخطابةً.

الخاتمة

لا تقف مهام الخطاب الأدبي في الشعر والخطابة عمومًا على تلبية الحاجة الحسيّة واستشعار الذائقة الأدبية فقط، بل إنّ الأمر يتعدّى ذلك ويشمل التناول الحجاجي للخطاب، وإلزامية حضور عناصره: (المتكلم، والمخاطب، والرسالة أو المضمون). والتناول الإقناعي له مرحلة معيارية من مراحل الخطاب الناجح المؤثر، فضلًا عن التناول السلوكي الناتج عقب الإنجاز الصحيح للمرحلتين السابقتين فيه. وقد تفطّن بعض علماء العرب إلى ضرورة العمل على تقنيات الإقناع وإيقاع التأثير المرغوب به على المخاطَب،

ولغايات توجيهية أو إنتاجية للسلوك، ولتبني الموقف المرغوب به، وبأساليب وطرائق تفاوتت فيما بينهم من حيث التعامل والتطبيق، ولكنها في الوقت نفسه قد اتفقت على المسعى نفسه في تحقيق الإقناع والإمتاع محصلة الأمر في آخره.

الهوامش والمراجع

(1) الكفوي، أبو البقاء: **الكليات**، إعداد: عدنان درويش، محمد المصري، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1998، ص406.

(2) الجرجاني، علي بن محمد: **معجم التعريفات**، تح: محمد صدّيق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة، ص73.

(3) العزاوي، أبو بكر: **اللغة والحجاج**، ط1، الدار البيضاء: العمدة في الطبع، 2006، ص8.

(4) اللغة والحجاج، ص8.

(5) بروطون، فيليب: **الحجاج في التواصل**، تر: محمد مشبال، عبد الواحد العلمي، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013، ص17.

(6) الحجاج في التواصل، ص25.

(7) ابن فارس، أحمد بن زكريا: **معجم المقاييس**، تح: عبد السلام هارون، ج2، بيروت: دار الفكر، ص33.

(8) الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس**، تح: مصطفى حجازي، ج22، الكويت:مطبعة حكومة الكويت، 1985، ص88، 90.

(9) الحجاج في التواصل، ص18.

(10) قدامة، بن جعفر: **نقد الشعر**، تح: محمد عبد المنعم الخفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص98.

(11) الدريدي، ساميّة: **الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه**، ط2، الأدرن: عالم الكتب الحديث، 2011، ص120.

(12) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله: **الصناعتين**، تح: محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، بيروت: دار الفكر العربي، ص10.

(13) الولي، محمد: "مدخل الى الحجاج"، **مجلة عالم الفكر**: العدد 1، 2011، ص17.

(14) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص274.

(15) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص275.

(16) فوغالي، باديس: **الزمان والمكان في الشعر الجاهلي**، عمان: جدارا للكتاب العالمي، 2007، ص204.

(17) التهانوي، محمد علي: **كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تح: رفيق العجم، بيروت: مكتبة لبنان، 1996، ص553.

(18) ابن وهب، اسحاق بن إبراهيم: **البرهان في وجوه البيان**، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط1، بغداد: مطبعة جامعة بغداد، 1967، ص222.

(19) القيرواني، ابن رشيق: **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، ج2، القاهرة: مطبعة السعادة، 1907، ص116.

(20) الجرجاني، علي بن عبد العزيز: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تح: محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1966، ص100.

(21) الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، تح: محمود شاكر، جدّة: دار المدني، ص270.

(22) أسرار البلاغة، ص270، 271.

(23) ضيف، شوقي: **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، ط11، القاهرة: دار المعارف، ص196.

(24) الحموي، ابن حجة: **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تح: كوكب دياب، ط2، بيروت: دار صادر، 2005، ص453.

(25) المصري، ابن أبي الأصبع: **تحرير التحبير**، تح: حنفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة: لجنة إحياء التراث، ص119.
(26) ابن الأثير، ضياء الدين:**كفاية الطالب**، تح: نوري القيسي، حاتم الضامن، العراق: منشورات جامعة الموصل، 1982، ص171.
(27) ابن المعتز، عبدالله: **البديع**، تح: إغناطيوس كراتشقوفسكي، الكويت: دار المشيرة، 1982، ص53.
(28) البديع، ص53.
(29) الصناعتين، ص426.
(30) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص69.
(31) العمدة في صناعة الشعر ونقده، ص119.
(32) مدخل إلى الحجاج، ص17.
(33) الجاحظ، أبو عثمان: **البيان والتبيين**، تح: عبد السلام هارون، ج1، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص76.
(34) البيان والتبيين، ص15.
(35) البيان والتبيين، ص114.
(36) البيان والتبيين، ص15.
(37) البيان والتبيين، ص15.
(38) البيان والتبيين، ص15.
(39) البيان والتبيين، ص12.
(40) البيان والتبيين، ص46.
(41) البيان والتبيين، ص47، 46.
(42) البرهان في وجوه البيان، ص73.
(43) البرهان في وجوه البيان، ص74.
(44) البرهان في وجوه البيان، ص75.
(45) البرهان في وجوه البيان، ص101.
(46) البرهان في وجوه البيان، ص111.
(47) البرهان في وجوه البيان، ص122.
(48) البرهان في وجوه البيان، ص147.
(49) البرهان في وجوه البيان، ص146.
(50) البرهان في وجوه البيان، ص313.
(51) البرهان في وجوه البيان، ص314.
(52) الصناعتين، ص2.
(53) الصناعتين، ص6.
(54) الصناعتين، ص12.
(55) الصناعتين، ص16.
(56) الصناعتين، ص17، 18.
(57) الصناعتين، ص416.
(58) العسكري، أبو هلال: **الفروق في اللغة**، تح: جمال مدغمش، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2002، ص16.

(59) الفروق في اللغة، ص12.
(60) الفروق في اللغة، ص14.
(61) الفروق في اللغة، ص39.
(62) الفروق في اللغة، ص145.
(63) الفروق في اللغة، ص16.
(64) الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، تح: محمود شاكر، جدّة: دار المدني، ص263.
(65) أسرار البلاغة، ص264.
(66) أسرار البلاغة، ص267.
(67) أسرار البلاغة، ص270.
(68) أسرار البلاغة، ص270.
(69) أسرار البلاغة، ص267.
(70) السكاكي، أبو يعقوب يوسف: **مفتاح العلوم**، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987، ص162.
(71) مفتاح العلوم، ص432.
(72) مفتاح العلوم، ص6.
(73) مفتاح العلوم، ص432.
(74) مفتاح العلوم، ص162.
(75) مفتاح العلوم، ص329.
(76) مفتاح العلوم، ص 329.
(77) مفتاح العلوم، ص330.
(78) مفتاح العلوم، ص330، 331.
(79) القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: ابن خوجة، ط3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص63.
(80) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص71.
(81) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص29.
(82) القرطاجني، حازم: **منهاج البلغاء وسراج الادباء**، تونس: دار الكتب الشرقية، 1966، ص104.
(83) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس: دار الكتب الشرقية، ص361.
(84) عصفور، جابر: **مفهوم الشعر**، ط5، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص196.
(85) مفهوم الشعر، ص197.
(86) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس: دار الكتب الشرقية، ص116.